أمثلة من الترجمة

Bodo Kirchhoff
Verlangen und Melancholie
Roman

Frankfurter Verlagsanstalt, Frankfurter am Main 2014
ISBN 978-3-627-00209-1

صفحات 11-25

بودو كيرشهوف
لهفة وشجن
رواية
ترجمة : محمود حسنين

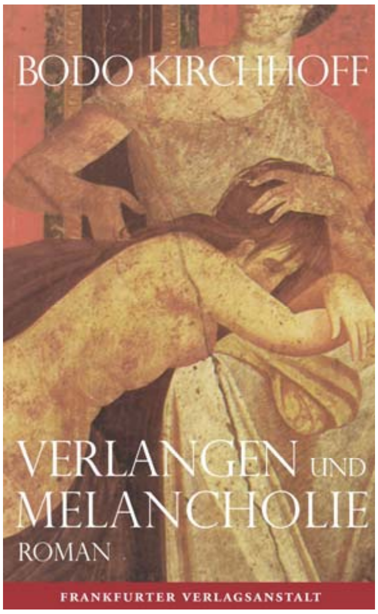

© 2015 Litrix.de

متى تنتهي حياة الإنسان مِنَّا، حين يتوقف القلب عن الخفقان، أم حين يبدو خفقانه بلا معنى؟ زوجي وأنا كُنَّا روادًا لدور السينما. أحببنا ثقيل الأفلام، وخفيفُها كان يغرينا. أغرتنا صور حب في حد ذاته. في السينما ينسى المرء اللغة، أو ينسى أن هومير قد ربط بين عاطفة الحب من جهة والفشل والموت من جهة أخرى، ورغم ذلك أوصى بمحاكاتها. والسؤال الآن هو: أيكون الحب إذًا نعمة أم نقمة؟ سؤال شغلت إجابته عقول البشر منذ الأزل، ولم يخلص أحد بعد إلى نتيجة. ولا شك أن الحب فكرة جميلة؛ أفلام لا تُحصى تستفيد منها. ولكن الموت كذلك بصفته حقيقة مفزعة يجعل من كل فيلم حسن أحسن، بل ورأت فيه إيرنه، في نهاية المطاف، اختيارًا أفضل من الحياة. ومنذ ذلك الحين، وأنا أسأل نفسي: لِمَ، وبناءً على ذلك، متى تنتهي حياة الإنسان مِنَّا؟ حين يتوقف القلب عما يقوم به من عمل، أم حين يبدو هذا العمل بلا معنى، أو كما في حالتي، حين لا يؤدي، أثناء الجو الممطر، إلا إلى نقطة نور، إلى فيلم تسجيلي عن عالم الحيوان: نمر أورينوكو الأسود، لغز أفيال الغابات، آخر بُبُور سومطرة. صور كانت تحملني حتى وقت ليس ببعيد، في مايو/ أيار، إلى المساء، بل إلى النوم. ثم وجدت خطابًا في صندوق البريد، كان أبيض بإطار بلون نمر أورينوكو.

(2)

هذا اليوم، يوم الخطاب في صندوق البريد، قبيل ذكرى قديسي الثلوج في منتصف مايو/ أيار، كان يومًا رائعًا. سماء زرقاء، هواء لطيف، وشعور، إلى أجل غير مسمى، بالخلود. كل شيء كان طيبًا في هذا اليوم. وحتى لقائي بجاري القاطن في الدور العاشر تعدى الكلمات المعتادة. كنت قد ركنت دراجتي للتو في ركن الدراجات في المرأب السفلي، حين مرق بسيارته الصاروخية. صفَّها، وأخرج منها حيونًا آية في الجمال. الكلب الذي سُمح له بالتريض، وفيما عدا ذلك يكون ضاجعًا في الشقة، في غاية الحزن، حتى ولو لا يمكن إثبات ذلك. كان كلب ذكر من جنس خليط، نصف ڤيماري، نصف أفغاني، ولا يُستبعد أن يكون فيه شيء من جنس ثالث. والنتيجة: عينا إنسان، وأذنان يود المرء أن يضعهما لنفسه على الوسادة، اسمه: جراند ڤيله. فهو إذًا كلب لم يبق له حرف في اسمه يتسنى له سماعه. وكان يحب أن يتمسح بي، حتى عندما دار الجار حول سيارته وأزال بإصباعيه آثار الأرض عن إطارات سيارته، بينما يمسك في يده الأخرى أداة ارتباط كلبه بالعالم. بدلًا من الغممة: سلام سلام، صحت: يا له من طقس!، فرد: آه نعم، ومضى إلى المصعد، بينما ارتقيت أنا إلى

© 2015 Litrix.de

مدخل المرأب، لكي أتفقد صندوق البريد في ردهة المنزل، شيء لا أفعله إلا بعد العمل. في هذا اليوم: تجميع الأسئلة لإعداد حفيدي مَالتَه لأداء اختبارات الثانوية العامة في مادتي اللغة الألمانية والأخلاق.

في مدخل المنزل التقيت جيران آخرين قاطنين في نفس طابقي. جيران يتغيرون كل ثلاثة شهور، لأنهم يرتدون مدرسة تعليم لغة ألمانية في الطابق الأرضي. في هذا الوقت، في مايو/ أيار، كانوا ثلاثة شبان من الصين، باب شقتهم يفضي إلى نفس الردهة مثل باب شقتي ومثل باب شقة صاحب الكلب. كل مساء كانوا يحملون، في انفعال، ما يحرزونه من تقدم إلى شقتهم. كان في مقدوري أن أسمع ذلك، عندما كانوا يتحدثون في الهاتف في طريقهم إلى الباب، وفي الردهة أمام صناديق البريد حيوني قائلين: "مع السلامة". ثم وجدت في صندوق البريد هذا الظرف بإطاره الأسود، وعليه اسمي بخط مطبعي. كل حرف منه مائل إلى الجهة اليمنى السفلية، ولكن الأمر بدا وكأن أحدهم أراد أن يخفي خطه، ورفض خط الطباعة في الوقت نفسه. في محيطي القريب، أسرتي وأصدقائي وزملائي السابقين، لم يمت أحد في الأيام السابقة، وإلا كان ذلك قد نما إلى علمي. من غاب عن بالي دون أن أغيب عن باله أو بالها وبال أهله أو أهلها؟ لم يخطر ببالي، ويا للسخافة، سوى زميلي الوحيد، الذي صار صديقًا حميمًا، في كل سنواتي لدى جريدة الجرائد، كما كانت إيرنه تحب أن تسميها. رجل وراه الثرى منذ زمن بعيد، وكأنه إذًا أرسل خطابًا من العالم الآخر في ذكرى جنازته، فقد كان ذلك وقتها تقريبًا. وفي المصعد، فكرت في النساء اللائي أثرين حياتي. أهمهن كذلك في العالم الآخر، وهو إن كان تعبيرًا غير دقيق، ففيه شيء من المواساة. وأخرى كانت من ناحية مرتفعات تاونوس القريبة، طبيبة أمراض باطينية، كانت في بداية الأربعين، حين تعرفنا على بعضنا البعض، كبيرة، شقراء، مهتمة بالثقافة، ماريانه. لم أكن مريضًا من مرضاها قط، اللهم إلا شكوى لا توجد في أي كتاب من كتب الطب. كانت ناشطة من نشطاء البيئة، ولكنها كانت تحب أن تقود سيارتها ذات المقعدين، وكنت أنا الرجل الذي ليس لديه رخصة قيادة، يحذرها المرة تلو الأخرى من أخطار الطريق. هل يمكن أن تكون قد لقت حتفها في حادث مروري؟ ولكن من عساه قد يكون أرسل الرسالة؟ وبناء عليه فلا.

كانت تقود، أم تقود، ماضي، أم مضارع؟ كيف عسى المرء أن يتحدث عن إنسان تحرر منه، ولكنه لا يزال موجودًا؟ لمدة دامت حوالي سنتين، كُنَّا، مريانه وأنا، رفيقين صامتين، في نفس الفترة التي ضعفت إيرنه، سيدة حياتي، في آخرها أمام نفسها. يوم صيفي في المدينة. غادرت في ظُهره الشقة حاملة حقيبة ظهر صغيرة. قالت إنها ستلتحق بمظاهرة ضد توسيع المطار، حتى تصير إنسانًا جديدًا. لم تكن السخرية التي تغلف بها

© 2015 Litrix.de

جدية موضوع أمرًا نادرًا عليها. ولكن إيرنه لم تذهب إلى المطار، بل كانت قرب المساء في ساحة الأوبرا، والتقطت هناك صورًا لأزواج شبان وأطفالهم. هذا ما قالته لي فيما بعد زميلة من قسم الثقافة العام المختص بجميع أنحاء جمهورية ألمانيا الاتحادية، بينما كنت أنا مسؤولًا عن القسم الثقافي الخاص بالمنطقة المحيطة. كانت تعرف زوجي شكلًا، وهاتفتني بعد أن وقعت الفاجعة. إيرنه لم تكن إذًا في المظاهرة، بل كانت وحدها في الخارج، في حين كنت أجلس وحدي في الشقة. ولم أرغب في أن أصير إنسانًا جديدًا، إنسانًا يقدر أن يعيش بمفرده أيضًا. وفي اليوم التالي، وجدوها أمام برج جوته، ممزقة بعد سقوط من ارتفاع ثلاثة وأربعين مترًا. وضعت حدًا لوجودها، أو أحضرت الموت من مستقبل غير معروف، كيفما يود المرء أن ينظر لما حدث.

توقف المصعد في الطابق العاشر. التقيت البواب، السيد كيرب. لقاء يسوده التقدير المتبادل منذ زمن. تمكنت، في اللحظة الأخيرة، من إخفاء الظرف ذي الإطار الأسود خلف ظهري. وصحت مرة أخرى: يا له من طقس! قال السيد كيرب إن معي حق وأخذني جانبًا، وذكر جاري صاحب الكلب، وعلى حد قوله، فقد قال صاحب الكلب لجار آخر إن كلبه يتمسح دومًا بشبه الميت هذا. معلومة مهمة ومفيدة. شكرته ودلفت إلى شقتي، ووضعت الظرف على مائد المطبخ. شبه الميت، هذا ما يقولونه بالطبع حين يكون الواحد مِنَّا ليس لديه ما يفعله، ويرى عصرًا أفلامًا تسجيلية عن عالم الحيوان. والحقيقة أنني أتقاضى منذ فترة معاشًا، كلمة ليست لطيفة ولكنها الكلمة المألوفة، وهو يكفيني للاحتفاظ بشقة تطل على وسط المدينة. حالي حسن، وصحتى طيبة كذلك. العضو، الذي يعمل في خدمة الشعراء والمغنين على حد سواء، لم يرسب في اختبار حتى الآن. كما أنني ساهمت بنصيب في التحضير لاختبارات حفيدي، ولكني لم أكن راضيًا بعد عن مساهمتي. بعد أن تناولت الطعام في المطبخ، جلست إلى حاسوب من سنواتي الأخيرة في الجريدة، وبجانبي كتب من مجموعة كتب إيرنه نُوفَالِيس، وهَايْنَه، وأَيْشِنْدورف للاختبار الشفوي في موضوع الحقبة الرومانتيكية في مادة اللغة الألمانية، وأرسطو، وكانط، وشوبنهاور للاختبار في مادة الأخلاق. تنقصني بعض الأسماء الجديدة، ولكن المساء لا يزال في بدايته. جلست بجانب النافذة المفتوحة المطلة على المدينة، حين حمل الشباب الصينيون ما أحرزوه من تقدم إلى شقتهم. كان القمر فاصلة رقيقة، ومن تيجان الأشجار أتى صفير الطيور فرادى، ومنخفض الصوت، مثل بكاء مَالتَه على قبر إيرنه التي كان فيها شيء أكثر شبابًا من أمه، ابنتي ناعومي، وكانت قد بكت هي الأخرى على قبر. كان ذلك قبل تسع سنوات.

© 2015 Litrix.de

كان لدى إيرنه وجه من تلك الوجوه التي تفرض على النساء مسؤولية تراجيدية. وجوه يتسنى لأي أحد أن يقرأ فيها ما يشاء. فمها ينتمي إلى ما يُسمى بالواقع من جهة، وإلى ما مجال الحلم من جهة أخرى. آمنت بهذا الفم وبإيرنه في حد ذاتها، وحاليًا أؤمن بالتأثير المهدئ للأفلام التسجيلية عن عالم الحيوان أو الشاي الأخضر. قمت بإعداد الشاي الأخضر أثناء استراحة من العمل، بينما الظرف ذو الإطار الأسود قابع على مائدة المطبخ. يمكن القول إنني أؤمن بالشاي الأخضر، كما كنت أؤمن أثناء عملي محررًا صحافيًا بقيمة الثقافة، وبأنها تصون حياتنا المشتركة من الهمجية. وأفعل المساء تلو الآخر شيئًا مماثلًا، وإن لم يكن الشيء نفسه: أضع ملعقة من أوراق الشاي في مصفاة إسطوانية، وأصب عليها ماء ساخنًا، ليس مغليًا، وأتركه في الفنجان يخرط، وانتظر أمام مائدة المطبخ. لا بد أن يخرط الشاي الأخضر في ماء ساخن، تبلغ درجة حرارته سبعين درجة، حتى يأتي بأفضل مفعول. المفعول الذي قد يعين المرء، في نهاية المطاف، على البقاء بعد رحيل جميع المعارف السابقين، ولكن لا أحد يتحدث عن ذلك. أخيرًا الرشفة الأولى، مذاق حمضي خفيف، سرعان ما يتحول إلى شيء محايد، بل باهت. الشاي الأخضر هواء يُشرب، يوجه الأفكار إلى الداخل، وليس إلى الفعل، حتى ولو كان هذا الفعل مجرد فتح خطاب. يمكن القول إنني فتحت الخطاب بأفكاري، وتخيلت شخصًا من زمن مضى، لم يبقَ منه سوى اسم تقريبًا، فانضم إلى أسماء الميتين في ذيل قائمة داخلية، فوضعت الظرف في درج المائدة بين صور قديمة وأدلة تشغيل، أشياء لا يتخلص منها المرء بسهولة. وبعد ذلك رشفة الشاي الثانية.

والفنجان في يدي – وهو أقرب منه للإناء من الفنجان، نسخة مطابقة لإناء شرب روماني بأذن، هدية من ابنتي التي تعمل في المتحف القريب للحضارات القديمة، وتستخدم مثل هذه النسخ وسيلة للدعاية – وهكذا بالشاي الأخضر، أو بالأحرى المريي الباهت، في تباين جميل مع الخزف تراكوتي اللون، غادرت المطبخ، وولجت حجرة المعيشة، في اتجاه جبهة نوافذي المطلة على المدينة، التي كانت لسنوات طويلة نوافذنا، إيرنه وأنا. خمس نوافذ كبيرة مؤطرة بالألمونيوم، تكاد لا توقف حرارة الشمس. في الصيف تكون الستائر مسدلة، عدا النافذة الوسطى التي تظل مكشوفة، وغالبًا ما تكون مفتوحة. وفي الشتاء يتجمع الثلج على الألمونيوم أثناء موجات الصقيع. منزل من السبعينيات، إيرنه وأنا كنا نعدُّ من سكانه القدماء، كانت ابنتنا تتعلم آنذاك الكلام، حين انتقلنا إليه، في سن الثلاثة كانت حصيلتها اللغوية مثيرة للخوف. بينما الإناء في يدي، تقدمت من النافذة الوسطى وتطلعت – بدلًا من مواصلة العمل على تلخيص الأسئلة المحورية في مجالي الرومانتيكية والأخلاق في هيئة أقرب للعرض لحفيدي النجيب – إلى الحديقة وما فيها من أشجار الكستناء القديمة. تُسمى حديقة المتحف. هكذا تُسمى، لأنها تصل بين منشأتين من هذا النوع، متحف الفنون التطبيقية، حتى لا نقول الصناعات اليدوية الفنية، مبنى أبيض، يحبون تلطيخه، والمتحف الذي تعمل فيه ابنتي ذراعًا يمنى أو

© 2015 Litrix.de

يسرى للمدير، وأمينة للمتحف أيضًا. وهي منشغلة هذه الأيام بالأعمال الأخيرة في معرض يتم الإعداد له منذ وقت طويل: إيروس في بومبي. تعود الفكرة الأولى له إلى إيرنه. بعد زيارتنا للمتحف القومي في نابولي وأطلال المدينة القديمة، بعثت الحياة، بالمعني الحرفي للتعبير، في الأشياء القديمة من خلال طريقتها في الحكي، وغرست بذرة في ناعومي، أثمرت فيما بعد. كم هو رائع أن أتت، بعد سنوات قضتها خارج البلاد، إلى المبنى الذي أراه من شقتي، ڤيلا من القرن التاسع عشر الميلادي، وفيها متحف فرانكفورت للحضارات القديمة، وفيه ابنتي رقم اثنين. ناعومي طموحة وليست سهلة المراس على الإطلاق، ولكن اعتزازي بها يوازن ذلك. أكون في حضورها ساكنًا، مثلما يكون حالي بعد الشاي الأخضر.

وهكذا في هذا المساء قبيل ذكرى قديسي الثلوج، في منتصف مايو/ أيار، فعل الشاي مفعوله أيضًا. هذا الظرف يمكن فتحه غدًا في الصباح الباكر، بكل اطمئنان وثقة في يوم لا يزال أمام المرء. على كل حال، سينتصر الفضول الإنساني، بالإضافة إلى احترام مُصَاب الموت وألم ذوي القربى. تداعت هذه الأفكار المصاحبة لاحتساء الشاي، حتى أخرجتني من هدوئي أصوات جراند ڤيله، مثل أصوات الدلافين في أفلام عالم البحار، أتت أصواته، وكأنه يقبع في حوض الاستحمام في حمامي. ولكن الأصوات أتت في الواقع من حمام جاري، حيث توجد، فيما يبدو، سلة الكلب. تركت الفنجان في المطبخ، وعدوت إلى حمامي، ووضعت أذني على البلاط. ولكن السكون ساد في الناحية الأخرى، سكون يشبه الذي يحل بعد صيحة خجولة: هل ثمة أحد هنا؟ وددت أن أرد بأصوات إنسان إلى كلب، بأصوات الذي يُزعم أنه شبه ميت إلى كائن حي، يسعى للتواصل. ولكن قبل أن يحدث ذلك، رنَّ جرس باب شقتي، ثلاث مرات قصيرة، فداهمني شعور لا يوصف، فيما يخص ما تبقى من المساء، بأنني قد أُنقذت.

© 2015 Litrix.de